وقّع الكرسي الرسولي وايطاليـة مؤخرًا معاهدة أنهت على شكل حتي ذاك الخلاف الطويل الذي فرّقهما منذ نحو ستين سنة . فرأينا من المفيد ان نلخص تطوّرات تلك المشكلة الرومانية التي سيفتح حلّها عهدًا جديدًا في تاريخ البابوية وتاريخ العالم المسيحي قاطبةً .

اصل الخلاف

في ٢٠ ايلول سنة ١٨٧٠ ، دخلت الجيوش الايطالية رومية . وكان قداسة البابا اذ ذاك ، بيوس التاسع ، امر بانزال العلم البابوي حقنًا للدماء . ولكنه ، في الوقت نفسه ، سلّم سفراء الدول احتجاجًا عنيفًا ايده برسالته العامّة المؤرخة في اول تشرين الثاني من السنة نفسها . اما الحكومة الايطالية فظنّت انها تتوفّق الى حلّ الخلاف بشريعة اعلنتها في ١٣ ايار سنة ١٨٧١ ، وهي المعروفة « بشريعة الضمانات » . وكان من موادّها الاعتراف لقداسة البابا بجميع مظاهر السلطة الخارجية ، ومنحه تعويضاً سنويًا قدره ٣,٢٥٥,٠٠٠ فرنك . ولكنها كانت تُنكر عليه حقيقة الاستقلال السياسي . وتنزع من ملكيته حتى قصرَي الڤاتيكان ولاتران فلا تقرّ لهُ الّا بالتمتع بهما فقط .

فرفض بيوس التاسع قبول هذه الشريعة الفاسدة مبدئيًا لصدورها عن القوّة الجبرية . وكذلك رفض المال ، وقرّر سجن نفسه في الڤاتيكان ، وقطع كل علاقة مع السلطات الايطالية . وحذّر على الكاثوليك من الايطاليين الاشتراك

في انتخابات بلادهم سواء كان ذلك تصويتاً او ترشحاً. ثم اعلم الامراء والملوك الكاثوليكيين انهُ لا يمكنه الموافقة على زياراتهم لرومية ، ما دامت الحالة على ذلك الشكل.

من لاون الثالث عشر الى بندكتوس الخامس عشر

ولمَّا خلف لاون الثالث عشر بيوس التاسع على السدَّة البطرسية ، اعاد جميع الاحتجاجات المذكورة ، وتمسَّك بها مدَّة حبريته الطويلة البالغة ٢٥ سنة محفوفة بالجلال والوقار. على ان التاريخ يذكر بعض ميول للتقرّب من الفاتيكان في سنة ١٨٨٧ . ولكن هذه المخابرات التي بدأها السياسي المشهور كريسپي عثرت بالعقبات الكؤود التي كانت تقيمها المحافل الماسونية الايطالية. وفي تلك المناسبة ، قال كريسپي ، على ما يُروى ، كلمته الشهيرة : « ان من يحلّ المشكلة الرومانية يكون اعظم رجل في ايطالية. »

اما بيوس العاشر فتابع السياسة نفسها من حيث الاعتزال في الفاتيكان . ولكنه ، لما رأى ان الاحزاب الثورية في ايطالية تتقدَّم تقدّماً مقلقاً ، سمح للكاثوليك من الوطنيين ان يشتركوا في الانتخابات وفي ترشيح انفسهم ايضاً . على انهُ ظلَّ متمسكاً بباقي موادّ احتجاجات سلفيه . ومما يُذكر ، تأييداً لهذا القول ، انهُ لما زار المسيو لوبيه ، رئيس جمهورية فرنسة ، قصر الكويرنال سنة ١٩٠٤ ، اصدر قداسة البابا احتجاجاً شديداً كان لهُ اعظم صدى في اوربة.

واذ توفي بيوس العاشر في ٢٠ آب سنة ١٩١٤ انتخب مجمع الكرادلة خلفاً لهُ بنديكتوس الخامس عشر . وكانت اوربة ، اذ ذاك ، في اول حربها الطاحنة . على ان هذه الحرب عملت على تعجيل حلّ المشكلة الرومانية ، لانها اظهرت لجميع الانظار حالة البابا غير المحتملة ، وقد حُرم ابناؤه في العالم المسيحي من صلاتهم بهِ على طريقة منظمة مستقلَّة فاجتهدت الحكومة الايطالية على سدّ هذه الثلمة نوعاً ما . فقبل البابا عملها بالشكر ، ولكنه اظهر ما يوجد من الإجحاف وعدم النظام بأن يكون استقلال رئيس الكنيسة متعلقاً بعواطف رجال الحكم وظروف السياسة ، وهي متقلبة بين ليلة وضحاها.

ولم تنتهِ الحرب حتى اخذ بنديكتوس الخامس عشر بالعمل في سبيل تسهيل الاتفاق . فقرّر ، في رسالته العامة الصادرة في ٧ ايار ١٩٢٠ ، السماح للملوك الكثلكة بزيارة رومية . ولكنه قال انهُ لا يجوز تأويل هذا السماح بأن البابا يتنازل عن شيء من حقوقه . وتابع طالباً وضع حدّ لتلك الحالة البعيدة عن العدل ، الوخيمة العاقبة لسلامة الشعوب جميعها .»

وكان الڤاتيكان لا يفتأ يشجّع كاثوليك ايطالية على الاشتراك في حياة بلادهم السياسية . فما عتّم هؤلاء ان ألّفوا في المجلس النيابي حزباً مهمًّا كان من اوليات موادّ برنامجه «احترام استقلال الحبر الاعظم» . وما زالوا يعملون بخطبهم وكتاباتهم حتى هيّأوا الرأي العام الايطالي للنظر الى حلّ المشكلة الرومانية ، نظرًا جديدًا . فاخذ رجالات السياسات يفكرون في ذاك الامر ، واقترح بعضهم اعطاء البابا من الارض ما يجعله مطلق الملكية والتصرّف «وما يلزم كي يمكنه القيام بسلطته كرئيس الكثلكة الاعلى .» ولم يكن موسوليني ، اذ ذاك ، الّا رئيس حزب الفاشيستية وهو لا يتجاوز الثلاثين ناشباً ، فخاض لاول مرة تلك المناقشة ، التي لم تؤدِّ الى ابعد من الاقتراحات ، لان الوقت لم يكن قد حان بعد . وكان من نصيب خليفة بنديكتوس الخامس عشر ان يشاهد فجره السعيد .

بيوس الحادي عشر

لم يكد يُنتخب في ٦ شباط ١٩٢٢ ، حتى قام باشارة رمزية كان لها معناها البعيد . وذلك انه منذ وفاة بيوس التاسع ، ترك الاحبار الاعظمون عادة الظهور على الشرفة الخارجية من كاتدرائية القديس بطرس ، وهي الشرفة التي تطلّ على الرحبة الواسعة . كل ذلك احتجاجاً ضمنيًّا على اجحاف ايطالية بحقّ البابوية . على ان بيوس الحادي عشر ترك تلك العادة وظهر ، حالًا بعد انتخابه ، على الشرفة الخارجية ؛ فبارك الجماهير الغفيرة المحتشدة في الرحبة الفسيحة ، بينما كانت الجيوش الايطالية تؤدي لهُ السلام العسكري .

فتتوقلت الاشاعات اذ ذاك بان تلك المظاهرة حلّت المشكلة الرومانية .

ولكنها كانت سابقة لأوانها ، ولم يعتم البابا الجديد ان بدّد تلك الاوهام ، مجدداً « جميع التحفظات اللازمة لصيانة حقوق الكرسي الرسولي التي لن تُمسّ والتي حلف بالدفاع عنها.» وبعد هذا التصريح الواضح ، الذي بدّد فيه كل تأويل فاسد لظهوره الاول على الشرفة الخارجية ، ظهر للمرة الثانية على الشرفة نفسها بعد حفلة تتويجه ، وبارك المئة الف مؤمن المزدحمين في رحبة القديس بطرس.

وفي ٢٨ آذار التالي ، وصل الى رومية ، ملك بلجيكة وملكتها مع ولي العهد . فكانوا اول من يزور البابا من ملوك الكثلكة بعد سنة ١٨٧٠ . ولم تمض اشهر حتى تبعتهما الاسرة المالكة في اسبانية.

وقد شاهد شهر تشرين الاول من سنة ١٩٢٢ ، تقدّم الجيش الفاشيستي واحتلاله رومية . فاستلم موسوليني زمام الامور مستعداً لتطبيق ما اتخذه من المقاصد المقرّرة بأن يعيد الى الكثلكة مركزها السامي في حياة ايطالية . ومن ذاك الحين ، اخذت الحكومة الايطالية ببذل الجهود فوق الجهود للتقرّب من الحبر الاعظم.

امّا البابا الجديد فنشر في ٢٣ كانون الاول سنة ١٩٢٢ ، رسالته العامة الاولى . وفيها يجدّد الاحتجاجات والمطالبات التي قام بها سلفاؤه باسم حقوق الكرسي الرسولي ومقامه السامي . ولكنه زاد في تلك الرسالة نداء شديداً أثّر في الرأي العام الايطالي حتى الأعماق . وهذا نصّه :

« ليس في الكرسي الرسولي ما يخيف ايطالية . فان الحبر الاعظم ، مهما تكن شخصيته ، يتخذ دائماً دستوراً لسلوكه كلمات النبي القائل : « افكاري متجهة نحو السلام لا نحو العذاب.» وان البابا يتابع دائماً عمله في توطيد السلام الحقيقي غير مبتعد في شيء عن العدالة ، حتى يمكنه تحقيق كلام الكتاب المقدّس : « لقد تعانق العدل والسلام ! » وان فله القادر على كل شيء ، الوافر الرحمة ، ان يشاء فيبدو ذاك النهار السعيد ، الكثير الخيرات لاعادة ملك السيد المسيح ، ولتحقيق السلام في ايطالية وفي العالم اجمع . ولكن على جميع ذوي الآراء الصائبة ان يوحّدوا جهودهم حتى لا تدق عبثاً تلك الساعة السعيدة

سياسة موسوليني

ولكن ست سنوات مرّت ، قبل ان تدقّ تلك الساعة السعيدة ، وقبل ان يُسمع ذاك النداء الابوي . على ان ايطالية لم تُحرم من رجل حازم ، هو بنيتو موسوليني ، يحفّه فريق من رجال السياسة ، قادرون جميعهم على سماع ذاك النداء المملوء بالالهامات الشريفة الصادرة من قلب الحبر العظيم . ولا شكّ في ان موسوليني اراد ان يجيب عن ذلك النداء من اول العهد الفاشيستي ، وينال بكل جدارة ، ذاك اللقب الفخم الظاهر في كلمة كريسبي . على ان المشكلة كانت وافرة الصعوبة ، متشعّبة العقبات حتى انه يظهر لنا ان الزعيم الفاشيستي ، على الرغم من مقدرته وجرأته ، خاف اولا ان ينظر اليها وجهاً لوجه ، ويعمل على حلّها مباشرةً . فبدأ بشهر الحرب على الماسونية ، وكانت في عرفه ، اعظم عقبة لتحقيق تلك الامنية الوطنية . وبعد ان سحقها ، وحطّم كل ما كانت تُحدثه من المعارضات في المجلس الايطالي ، اخذ يخلق جوّ موافق في السياسة لما كان في نيّته القيام به من المغايرات . فجعل يزيد تأثير الديانة مساحةً وعمقاً في جميع مظاهر الحياة الايطالية ، وذلك بأن حذف او حوّر كل ما كان معاكساً لاعمال الكنيسة في الشرائع السابقة .

ويخال لنا انه لم يخلُ من الظنّ ان البابوية ، بعد ان يكون اغدق عليها احتراماته المتعدّدة وعناياته الكثيرة ، قد تترك المطالبة بحقوقها الاصلية ، وهي ان تعترف الحكومة باستقلالها التام ، وتعطيها الضمانات للقيام بهذا الاستقلال . ودامت هذه السياسة الجذّابة ستّ سنوات لا تألو جهداً في تعديد الخدمات للكنيسة من كبيرة وصغيرة ، وغايتها ، في عقول سياسيي الفاشيست ، ان تقرّب الزمن الذي تتحقّق فيه البابوية كل ما تظهره الحكومة من الاخلاص والتفاني ، فتترك المطالبة بحقوقها .

وكان من اهمّ هذه التقرّبات اصلاح التشريعات الدينية التي قام بها الحزب الفاشيستي سنة ١٩٢٥ . وكان هذا الاصلاح موافقاً للكنيسة في نقاط عديدة . على ان نقصه المهمّ كان في انه صدر عن حكومة علمانية اتخذت لها الحقّ في

سنّ نظام للكنيسة دون ان تستشيرها . ولهذا فان قداسة البابا بيوس الحادي عشر ، في كتاب عامّ ارسله الى الكردينال غسباري بتاريخ ١٣ شباط ١٩٢٦ ، انكر على الحكومة الايطالية الحقّ في الانفراد ، دون الكرسي الرسولي ، بوضع نظام رسمي للكنيسة الكاثوليكية . وقال خاتماً : « ان كل تعاون يظل مستحيلاً ما دامت تلك الحالة المجحفة بحقّ الكرسي الرسولي وبحق الحبر الاعظم . » عند ذاك وُجد موسوليني وحزبه وجهاً لوجه أمام المشكلة الرومانية التي كانوا قد ارادوا حلّها ، على ما يظهر ، بطريقة غير مباشرة . وعرفوا انه من الضروري ان يحلّوها قبل كل شيء ، فيسهل عليهم البحث في غيرها .

فلم يتردّد موسوليني في القيام بهذا العمل الذي تابعه في سكوت تامّ وطمأنينة لا شيء يقلقهما ، بفضل ما سنّه الفاشيست من النظام لصحافة بلادهم . وكان ذلك العمل يتقدّم رويداً رويداً . وكثيراً ما عاقتهُ الصعوبات فاوقفته زمناً ، او قامت بوجهه العقبات فارجعته الى الوراء ، وقطعت المخابرات مدة بين السلطتين . ولكن لم يبدُ من ذلك شيء في الخارج ، حيث كانت الحياة السياسية تسير على اتمّ ما يرام . وقد علمنا بواسطة « الاوسرفاتوري رومانو » ان مندوبي الحبر الاعظم اجتمعوا الى مندوبي حكومة ايطالية ، اثناء المخابرات اكثر من مائتي مرّة . وهذا العدد يكفي وحده للدلالة على تطوّرات القضية ، وقد ظنّوا مرّات عديدة انهم وصلوا الى حلّ موافق ، ولكن كان ظنهم سابقاً لاوانه ، وكذلك اعتقدوا ايضاً مرّات عديدة انهم سائرون الى فشل نهائي ، كما حصل عندما الغت السلطة الفاشيستية جمعيات الكشّافة الكاثوليكية . وقد شعر الرأي العام بعاطفة الفشل نفسها ، لمّا نشرت الجريدة الرسمية للحزب الفاشيستي انهُ يُنكر قطعياً اعادة شيء من الارض للبابا ولو كان قدر اصبع .

على ان السلطتين كانتا مخلصتين في اعمالهما ، ثابتتين في جهودهما ، وانتتين برغباتهما في الوصول . فوصلتا بعد ان مهّدتا الطريق بازالة العقبات الكثيرة . اما كيف امكنهما النجاح فهو ما سنتكلم عنهُ في مقالٍ آتٍ .